الجَهْرُ بالدَّعْوَة

مكثت الدعوةُ إلَى الإسلام في مكةَ المكرمة سرِّيةً ثلاثَ سنينَ، بلغ عددُ المسلمينَ خلالَها أربعينَ رجلاً غيرَ النساء.

وشاءَ اللهُ تعالَى لرسوله ﷺ أنْ يجهرَ بالدعوة، فأنزلَ عليه قولَه سبحانَه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

وأمرهُ اللهُ أنْ ينذرَ عشيرتَه الأقربينَ، فقالَ تعالَى:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

فقام النبيُّ ﷺ بتنفيذِ الأمرِ الإلهيِّ، فصعدَ علَى جبلِ الصَّفَا مناديًا قومَه:

- يا بني فِهْرٍ.. يا بني عَدِيٍّ.

فلمَّا اجتمعُوا قالَ لهُم رسولُ الله ﷺ:

---

(١) الحجر: ٩٤.

(٢) الشعراء: ٢١٤، ٢١٥.

أرأيتُمْ لو أخبرتُكُم أنَّ خيلاً بالوادِي تريدُ أنْ تغيرَ عليكُم أكنتُمْ مصدِّقيَّ؟

فقالو:

- ما جرَّبنا عليكَ كذباً.

فقالَ ﷺ:

- فإنِّي نذيرٌ لكُم بينَ يَدَيْ عذاب شديد.

ثمَّ قامَ ﷺ بتنفيذ الأمر الإلهيِّ الثانِي وهوَ: أن ينذرَ عشيرته الأقربينَ فجمعَهُم وقالَ لهُمْ:

- «يا بني كعب بن لُؤَيٍّ، أنقذُوا أنفُسكم منَ النار، يا بني مُرَّةَ ابن كعب، أنقذوا أنفُسكم من النارِ، يا بني عبد المطلب، أنقذُوا أنفسكُم منَ النّارِ، يا فاطمةُ، أنقذي نفسَك من النارِ لا أملكُ لكُمْ منَ الله شيئًا، غيرَ أنَّ لكمْ رحِمًا سأبلُّها ببِلالِها[1]».

---

(١) أي أصلها بصلتها.

فلَمْ يستجيبُوا لهُ وتعلّلُوا بتقاليدهم الموروثة وباتباع ما كان عليه آباؤهم. فلمَّا عابَ النبيُّ ﷺ آلهتَهم، وسفَّه تقاليدَهم وأحلامَهم عادوا وتنكَّرُوا لهُ ولدعوته.

ومشَى جماعةٌ منْ أشراف قريشٍ إلى عمّه أبي طالبٍ، وقالُوا له:

- يا أبَا طالب، إنَّ ابنَ أخيكَ قدْ سبَّ آلهتَنا، وعابَ دينَنا، وسفَّهَ أحلامَنا، وضلَّل أبناءَنا، فإمَّا أنْ تكُفَّه عنَّا، وإما أن تخلِّي بيننا وبينه..

فردَّهُم أبو طالبٍ برفقٍ ولينٍ فانصرفُوا.

ومضَى رسولُ الله ﷺ في إظهار دين الله وفي الدعوة إليه، فعاودُوا الكَرَّةَ مرةً أخرَى إلَى أبِي طالبٍ بعدَ أن اشتدَّ الأمرُ بينَه وبينَهم، فقالُوا له:

- يا أبا طالب، إن لك سنّا وشرفًا ومنزلةً فينَا، وإنَّا قدْ استنهيناكَ منَ ابن أخيكَ فلَمْ تنهَهُ عنّا، وإنَّا والله لا نصبرُ علَى هذَا منْ شتمِ آبائنا، وتَسْفيه أحْلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفَّه عنا، أو ننازلَه وإياكَ في ذلك حتَّى يَهْلكَ أحدُ الفريقين.

وعندئذ عَظُمَ علَى أبي طالب فراقُ قومه وعداوتُهم، وفي الوقت نفسه لا يمكنُ أن يفرِّط في رسول الله ﷺ ولا في حمايته.

فقالَ أبو طالب للرسول ﷺ:

- يا ابنَ أخي، إنَّ قومَكَ قد جاءوني فقالُوا لي.. فأبقِ عليَّ وعلى نفسكَ، ولا تُحمِّلْني من الأمر ما لا أطيقُ.

فأجابَه رسولُ الله ﷺ إجابةً كلُّها قوةٌ وإيمانٌ، وصاحَ بعبارته التي ظلَّتْ على مَرِّ التاريخ عُنوانَ الشجاعةِ في الحقِّ، وآيةَ الآيات على التفاني في سبيل العقيدة، قالَ:

«والله يا عَمّ، لو وضعُوا الشمسَ في يميني، والقمرَ في يساري علَى أنْ أتركَ هذَا الأمرَ حتَّى يظهرَه اللهُ أو أهلكَ فيه مَا تركتُه».

ثمَّ استعبرَ رسولُ الله ﷺ فبكَى، ثمَّ قامَ، فناداه أبُو طالب قائلاً له:

- أقبِلْ يا ابنَ أخي.

فأقبَلَ عليه النبيُّ، فقالَ أبو طالب مشيراً بيده:

- اذهبْ يا ابنَ أخي فقلْ ما أحببتَ، والله لا أسْلِمُك لشيءٍ أبداً.

وبهذا تكونُ قد فشلَتْ حيلةُ المشركينَ هذه في محاولتهم فصْلَ عمِّه أبي طالب عنه وتخلِّيه دونَه، بل إنَّه حتَّى لوْ حدثَ هذا فإنَّ رسولَ الله ﷺ لنْ يتخلَّى عن دعوته حتَّى لو قايضُوه عليهَا بالشمس والقمر في يديْه، بل حتَّى لو هلَكَ فِي سبيلِ ذلكَ.

obeikandl.com